بياع الصيص

بقلم وصفى آل وصفى

قابع فى ركنه ، جلبابه متسخ بال ..

صامت لا ينادى على بلحاته « الصيص » ، مستسلم لا يدفع عنها الذباب ..

يمر به اهل المدينة كالغرباء ، لاتومض عينان بمعرفة ولا تتحرك يد بتحية .. بين الحين تروغ عينان بنظرة رثاء !

لكننى اعرف قصته ..

كانت له تجارة رائجة ، واصدقاء يجتمعون امام محله صيفا وداخله شتاء ، وامراة ..

اعرف قصته من بدايتها ، شبه اسطورة افضت الى ماساة . رواها احدهم لابن عمى عندما وصل الى البلدة شيخا لجامعها ، فحكاها لى ونحن جالسان امام المقهى الوحيد بالبلدة نشرب الشاى الأسود وندخن ونتكلم فى السياسة . كنت قد تخلفت فى البلدة ساعات أزور ابن عمى ، وانا فى طريقى الى قريتنا هربا من جو القاهرة المتوتر اثر حريق يناير عام الثورة . وجلسنا امام المقهى المقابل للمحطة نقضى الساعة الباقية على موعد القطار ، ولمحت بياع « الصيص » فتعلقت به عيناى حتى مصمص ابن عمى شفتيه وشرع يروى لى قصته مؤكدا انه يحكيها كما سمعها تماما ..

وانا احكيها لكم بكلمات ابن عمى ، لا اضيف غير القليل الضرورى من لساتى ..

اسمه عبد الله ، وامراته كان اسمها محاسن ..

ذات يوم دخلت محاسن تشترى ارخص ما يبيع عبد الله فأخذت معها قلبه ، وتركته يجرى وراءها يتقصى !

وسرعان ما احاط بكل شىء عنها ، ولم يكن كثيرا ..

وحيدة شيخ كفيف يصنع السلال فتحملها يوم الاثنين الى السوق ، تبيعها وتشترى ببعض ثمنها زادا يكاد الا يشبعهما فيكاد الجوع ان يرميهما فى الاثم ، لولا ان الشيخ من اسرة عاشت أجيالها شريفة وهى تقيم بخير دار فى البلدة شريفة وهى تساكن باعة الفجل وعمال المخابز وصانعى السلال والطبالى ، لولا أن الفتاة وعت حديث امها الراحلة ، عن الطهر والعفة ،

ولم يتردد عبد الله ، لم يفزعه أن يستقر قلبه حيث لا مال ولا جاه . لم يصغ لاعتراضات اغلب أصدقائه ، وبادر يخطب محاسن ويتزوجها ..

كانت له تجارة ، وكان له أصدقاء ، وكانت له امراة ..

كان ذلك عندما بلغ غول الغلاء ، سقط المجزرة العالمية الأخيرة ، وتربع على عرش الجشع يقسم الخلق فريقين : فريقا يأكله ، وفريقا يشاركه لعق دم الحياة أو يأكله !

ومضت الأيام تلد « الفرص » لكل نهاز .. وعبد الله قانع لايفتتن ولا يفتنم ، لا يغالى فى نسبة أرباحه ، ولا يستغل نفوذ أصدقائه . لا يسجل باسم زوجته عمارة ، ولا يشترى لها عربة ، يتجاهل حتمية القول فى بساطة ، وينعم بيسر معقول وسعادة وادعة .. لا ينغصها حتى حرمانه من الولد .

وتحققت آية الانجيل « من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه .. »، بتفسير حرفى بشع . واشتدت مخالب الغول على رقاب باعة الفجل وعمال المخابز وصانعى السلال والطبالى ، وقد اختار والد محاسن ان يقضى ايامه الباقية حيث عاش .. بينهم .

واقبل الشيخ على فتاته يوما يحدثها بما يقاسون ، يصف لها جزع الدموع وخواء البطون ، ويهمس فى اذنها ان نساء كثيرات اوشكت أن تخرج الى الطرقات وان يدخلن البيوت من غير ابوابها !

ولم يجد لدى محاسن سوى عبراتها تبلل بها يديه ، فقام يسعى الى صهره يحدثه ويصف له ويهمس فى اذنه . وكان عبد الله يعلم ان دموع «الغلابى» قد جفت من طول بكاء وان بطونهم ضمرت من طول خواء ، وان ثمة نساء خرجت فعلا الى الطرقات ورجالا دخلوا فعلا البيوت من غير ابوابها .. الا انه كان ايضا تاجرا بين التجار ، يدرك أن فكرة التعاون لخفض الاسعار فكرة ضائعة ، لايقبلها العمالقة بحال ولا يطيقها المستورون والاقزام !

وشرع يشرح للشيخ حقيقة الموقف، يفهمه انه لايستطيع شيئا .. وان العين بصيرة واليد قصيرة ، والأمر لله من قبل ومن بعد . يحاول ان يسترضيه ، يستدرجه للاقامة مع ابنته ترعاه وتخدمه . الا أن الشيخ كان قد جاءه بعناد الشيخوخة ، واصرارها يأبى أن يستمع او يتراجع وانتهى الأمر بخروجهما الى معارف من التجار .. ينفعل الشيخ ويثور لامالاق الجماهير ، ثم ينتفض ويدع عبد الله يعرض ويناقش مصلحة التجار فى الا تثور الجماهير !

وتأثر البعض لانفعال الشيخ ، وسلم البعض بمنطق عبد الله ، ومن بعد انفعال .. أو تسليم .. كانت الوجوه تكتسى بابتسامات مجاملة تودع وتعتذر !

وافترق الرجلان آخر اليوم ، الشيخ مرتاح الضمير سعيد بما سعى، وعبد الله متوتر يندلع فى وجدانه وفكره شرار خاطف لخواطر هائجة مجنونة ..

وطال الليل ، ومع الفجر بلغ اضطراب عبد الله ذروته ..

ودوى فى اذنه نغم عميق . انقشع على اثره ستار وهمى عن مسرح هائل ..

وجأر هاتف خفى ، بصوت مرتجف: يرفضون ؟ يرفضون خفض الأسعار ؟ حسنا .. لنرغمهم !

وانفصل عنه خياله ، فرأى شبحه يضخم .. يتسامق .. يعتلى المسرح الشاغر .. يذرعه فى حماس وانفعال بطل !

***

اشرقت شمس اليوم التالى فقامت البلدة على مفاجأة مذهلة ، لا يسعها أن تصدق ما تسمع : كيف ؟ متى ؟ لماذا ؟ لكنها كانت الحقيقة ، كان عبدالله يبيع دون ربح ، اى ربح .. البضائع الحرة والمسعرة ايضا !

وجنت البلدة ، وتجمع الناس امام محله يتعاركون . حتى الأغنياء ،بعثوا خدمهم يحصلون على نصيب من « بركة » عبد الله !

وتوسط بعض افراد « القوة » ، التى وكل اليها امر المحافظة على النظام، بين « الغلابى » وما يشترون : النصف بالنصف !

وانحشر فى الحشد لصوص ، وشواذ ..

وتضارب اثنان من الموظفين ، واحد من كبار صغارهم وآخر من صغار كبارهم ، عندما قارن الاول بين سوء توزيع الدخل وسوء توزيع العمل !

وأصدرت المجلة المحلية عددا خاصا، فى صفحة واحدة قمئة ، زينته بصورة « الانسان .. البطل » ، لم ترد به كلمة واحدة عن غيره من التجار او المتاجرين !

***

وذهب يوم ، وطلع صباح جديد..

ووصلت جرائد القاهرة تشير فى سطور قليلة ، بقاع صفحاتها ، الى « التاجر المجنون » ! واتصل «الباشا» المدير بصاحب العزة « البك » المأمور، يزجره ويسأله عن الكلام « الفارغ » الذى ترامى الى مسامعه ..

وانطلقت عصابات هزيلة من الحفاة، تزعق فى هوس : « ينصر دينه .. عبد الله .. ينصر دينه عبد الله .. »!

واجتمع اثرياء الحرب من التجار ، فى الغرفة التجارية ، يدخنون اللفائف ويتسامرون ويحتسون القهوة ويتراهنون متى ينهار « المخبول » . واقترح احدهم أن يروجوا اشاعة بأن عبد الله قد اصابه الجنون ، فضحك آخر وعرض فكرة اسرع اثرا : ان عبد الله اشتراكى اهوس واخيرا استقر رأيهم على فرية أشد نكاية : ان عبد الله قد ارتد عن دينه ودخل عصابة الشيوعيين !

واختفى المستورون من التجار ، والأقزام ، بعضهم ارقده المرض فجاة، فسافر يعودهم .. وبعضهم لحق بالعمالقة يتودد اليهم ويناقفهم ويسألهم مد آجال الديون !

وذهب يوم ثان ، وبدأ يوم ثالث مشحون بالصمت ..

نهبت البلد محل عبد الله ، وخلفت له الارفف الفارغة والجرذان .ورفض تجار الجملة ان يوردوا له نسيئة ،

واخذوا ما بيده من مال فاقتضوه سدادا لديونهم التى لم يحن موعدها . وخشى اصدقاؤه ان يورطهم ، او ان يطلب منهم معونة ، فتجنبوا الطريق الى محله فى غدوهم ورواحهم . وانهارت اعصاب محاسن تحت وطء الكارثة ، فانفجرت تبكى وتصرخ فى وجه ابيها وهو يحدثها عن الصبر .. والايمان : « انت السبب .. انت السبب .. الله يسامحك » !

***

وكان يوم رابع ، فيه تمت المأساة ..

نشبت مشادة حامية أول الصباح بين عبد الله وعميد التجار جاء متجره يتشفى ، يهينه ويسبه .. ويتطاول على شرفه : «عامل روحك بطل .. اهبل فكرك واحد وحده . اهبل .. حتى بطل .. يهز منا شعرة ؟ انا عزبتى وحدها تقف قدام عشرة منك عشر سنين ! ان كنت بطل صحيح ، اعمل بطل على طول يابن ام عبد الله !وزعت البضاعة على المسعورين ؟ فاضل محاسن ، وزعها علينا بدل عطلتها فى البيت .. على الأقل المكسب منا فيها مضمون ! » .

وافلت الرجل فى حماية اتباعه فراح عبد الله يخبط راسه بكفه ويبكى ..

وفى الضحى خطف سكين « البسطرمة » فجأة واندفع يجرى الى قلب البلدة ، يزمجر ويدمدم ويصرخ بعبارات متقطعة : « محاسن ؟ ! المجرم والله العظيم .. بالله العظيم .. اشرب من دمه ! » .

وكانت محاسن فى طريقها الى المحل ، استفزها قلق قاهر فاقبلت تهرول .. تريد ان تطل من بعيد وتعود . وشاهدته منتفش الشعر ، يجرى والسكين فى يده .. فحدست غريزتها كارثة جديدة توشك ان تحل برجلها وانطلقت تهتف وتستغيث : « عبدالله .. مصيبتى ! عبد الله .. مصيبتى ! والنبى يا عبد الله .. الله يهديك يا عبد الله .. يارب .. يا ناس .. « ردوه .. » .

ولم يسمع عبد الله من هتافها واستغاثتها شيئا ، كانت حواسه كلها مركزه فى يده وفى السكين ..

وقصرت المسافة بينهما ..

وبغتة انحرفت سيارة نقل ضخمة من احدى الطرق الجانبية ، فصرخت محاسن تحذر زوجها . واستطاع السائق أن يتفاداه بحركة سريعة ، ثم تراخى انتباهه فلم يسعفه بطاقة جديدة ليفاداها هى ..

وكانت صرخة مروعة ، وصدمة .. وسكون ..

***

وسكت ابن عمى ، فاسندت راسى بين يدى اتساءل كم أضاف الى القصة وكم اسبغ عليها من عنده .. واتخيل ما اغفل من تفاصيل .

وجذبت عينى كلمتان كبيرتان حمراوان فى صدر جريدة اليوم السابق التى لفت لى فيها زوجة ابن عمى خبزا وجبنا للقطار : « الملك يقبل » ... فادرت اللفة بحركة تلقائية اريد تتمة العنوان ، ولكن باقى الصفحة كان مطويا !